# ٤ ـ الشـــعر *

## في صدر الاسلام وعهد بني أمية

بقلم احمد حسن الزيات

### ٣ — خصائص الشعر في العراق

وكأن الهجاء كان في جرير غريزة يرمى الناس عنها لأدنى سبب وعلى غير معرفة ، فقد دخل على الوليد بن عبد الملك وعنده عدى بن الرقاع العاملي ، فقال له الخليفة : أتعرف هـذا ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين ، فقال : هذا رجل من عاملة ، قال جرير : التي يقول فيها الله : « عاملةٌ ناصبة تصلى ناراً حامية » ، ثم قال بيتاً قبيحاً وردَّ عليه عدىٌّ بمثله ، فهجاه جرير بقصيدة منها ذلك البيت المشهور :

وابنُ اللبون إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ ... لم يستطع صولةَ البُزْل القناعيس

ولعل ذلك راجع الى ميل في طبع أمه الى هذا الضرب من البذاء والايذاء ، فاشتهت أن تراه فيه ، حتى صُورتْ لها تلك الأمنية في الحلُم ، فرأت وهي حامل به أن حبلاً نزل منها فصار يثب على الناس فيخنقهم واحداً بعد واحد ، فلما تأولت رؤياها قيل لها : إنك تلدين ولداً يكون شديد الهجاء والبلاء على الناس والشعراء ، فسمته لذلك جريراً ؛ وسواء أرأت أمه هذه الرؤيا أم افترتها ، فقد كان لها ولا ريب أثر قوى في توجيه قريحته منذ طفولته

وهجاء جرير على الجملة ضعيف الفخر لبعد مستقاه فيه ، وما استطاع الفرزدق أن يعجزه إلا في مشواره ، فهو يقول له بحق :

غلبتك بالمفقَّأ والمعنّى ... وبيت المحتبي والخافقات

يريد بالمفقأ أو المفقُ قوله :

ولست ولو فقأت عينك واجداً ... أباً لك إن عُد المساعي كدارم

وبالمعنّى قوله :

وإنك إن تسعى لتدرك دارماً ... لأنت المعنّى يا جرير المكلَّف

وبالمحتبي قوله :

بيتاً زرارة محتب بفنائه ... ومجاشع وأبو الفوارس نهشل

وبالخافقات قوله :

وأين تُقضى الملكات أمورها ... بحق وأين الخافقات اللوامع

والفرزدق يريد بهذه الأبيات الاشارة الى القصائد التي تضمنتها وهي من عيون شعره ومتين فخره

وضعف جرير في الفخر إنما يرجع الى الموضوع لا الى الأسلوب ، فانه أجل خصومه صياغة ، وأوفرهم بلاغة ، وأرقهم لفظاً ، وألطفهم مدخلاً ، وأكثرهم افتناناً . ولسهولة شعره وقلة غريبه نفق عند العامة والشعراء ، دون الرواة والعلماء

وهجاء هؤلاء الأقران الثلاثة إذا استثنينا منه المعاني الجديدة واللهجة الشديدة والتصوير البارع ، لم يخرج عن سمت الهجائين الفحول كالمخبل الغريمي ، وحسان بن ثابت ، والحطيئة ، في الابتداء بوصف الطلل والغزل ، والاعتماد على المفاخرة والمنافرة ، وتلمس العيوب من خبايا الماضي ، والانتقال المقتضب من معنى الى معنى . وأشد ما يعيب هجاء جرير والفرزدق كثرة التكرار ، فان كلا الرجلين إنما يهجو صاحبه بطائفة من الحوادث والصفات ذكرناها من قبل ، فلا نراه يعدل عنها ، ولا يكاد يزيد عليها ، وإنما يرددها في كل قصيدة أو نقيضة في أساليب شتى وقوافٍ مختلفة ، فاذا قرأنا لكل واحد منهما واحدة منهن لا يضيرنا بعدها ألا نقرأ غيرها . كذلك إذا ألممنا بهجاء الأخطل والفرزدق وجرير فقد ألممنا بسائر الهجاء في هذا الطور ، لأنه مصوغ من مادته ومضروب على مثاله

على أن أساليب شعراء العراق في الهجاء الحزبي تختلف عنها في الهجاء الفردي ، فبينما هم في هذا لا يترفعون عن الهُجر ولا يتورعون عن الكذب تراهم في ذلك يذهبون مذهب الجاهليين ، فيفاخرون بالنسب ، ويكاثرون بالعدد والمال ، ويؤثرون اللفظ الشريف والأسلوب العف ، بيد أنهم يغلون في الفخر حتى ليجعلونه في الدين والحكم والعلم والوطن

قال أعشى همدان وهو من أنصار ابن الأشعث :

أكسع البصرى إن لاقيته ... إنما يُكسع من قل وذل

واجعل الكوفي في الخيل ولا ... تجعل البصرى إلا في النفل

* من الطبعة الجديدة لكتاب تاريخ الأدب العربي الذي صدر حديثاً

وإذا فاخرتمونا فاذكروا ما فعلنا بكمُ يوم الجمل
بيت شيخ خاضب عثنونه وفتى أبيض وضاح رِفَلْ
جاءنا يخطر فى سابغة فذبحناه فحتى ذبح الحمل
وعفونا فنسيتم عفونا وكفرتم نعمة الله الأجل

ومن هجائه السياسى الدينى قوله مرتجزاً فى الحجاج :

شطتْ نوى مَن دارُهُ بالايوان
إيوان كسرى ذى القرى والريحان
إن ثقيفاً منهمُ الكذابان كذابها الماضى وكذابٌ ثان
أمكن ربى من ثقيف همدان إما سمونا للكفور الفتان
حين طغى بالكفر بعد الايمان بالسيد العطريف عبد الرحمن
سار بجمع كالدبى من قحطان فقل لحجاج ولى الشيطان
يثبتْ بجمع منحج وهمدان فانهم ساقوه كأس الذيفان

وملحقوه بقرى ابن مروان

وهذا النوع من الهجاء قليل النفوق والبقاء ، كثير النفاق والرياء ، لطمع الشعراء فى حباء الخلفاء وإيثارهم فى الغالب سلامة البدن على سلامة العقيدة . وليس الهجاء الحزبى إلا صورة من صور الشعر السياسى الذى نفق فى هذا العصر ؛ وما نزعم بهذه التسمية أن الاسلاميين قد وقعوا على مذهب فى الشعر جديد القصد والغاية ، فان مساجلة الخصوم بالشعر كانت مألوفة فى عصر الجاهلية مشروعة فى عهد النبوة ، إنما نقصد بالشعر السياسى طائفة من المعانى الجديدة استوحتها خواطر الشعراء من اختلاف الأحزاب فى الرأى ، وتنازع الزعماء فى الحكم . جاءت هذه المعانى الجديدة على النهج القديم فى صور مختلفة ، نستطيع أن نردها الى أربع : فقد أتت فى صورة المدح المشوب بالتحريض والتعريض كقول أبى العباس الأعمى :

أبنى أمية لا أرى لكمُ شبهاً إذا ما التفّت الشيعُ
سمة وأحلاماً إذا نزعت أهل الحلوم فضرّها النزع
أبنى أمية غير أنكمُ ، والناس فيما أطمعوا طمعوا ،
أطمعتمو فيكم عدوكمو فيما بهم فى ذاكم الطمع
فلو أنكم كنتم لقومكم مثل الذى كانوا لكم رجعوا
عما كرهتم أو لَرَدهم حذرُ العقوبة ، إنها تزع

وكقول الكميت :

بنى هاشم رهط النبى فانى بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب
خفضت لهم منى جناحىْ مودة إلى كنف عطفاه أهلٌ ومرحب
وأرمى وأرمَى بالعداوة أهلها وإنى لأوذَى فيهم وأؤنَّب

وكفة الأمويين فى هذا الباب أرجح ، لما تجمّع لهم من الترغيب فى المال ، والترهيب بالملك ، والتمليق لهوى النفوس ، فمدحهم ونصرهم أكثر الشعراء فى عصرهم ، إما دفعاً لشرهم وإما طمعاً فى خيرهم ، حتى الذين شايعوا خصومهم من الزبيريين والعلويين لم يستطيعوا حبس لعابهم عن عطايا القصر

وقد يأتى الشعر السياسى فى صورة الهجاء كما مرّ ، وكما قال أعشى ربيعة لعبد الملك :

آل الزبير من الخلافة كالتى عجل النتاج بحملها فأحالها
أو كالضعاف من الحمولة حملت ما لا تطيق فضيعت أحمالها
قوموا إليهم لا تناموا عنهم كم للغواة أطلتم أمهالها
إن الخلافة فيكمو لا فيهمُ ما زلتمُ أركانها وثمالها
أمسوا على الخيرات قفلاً مغلقاً فانهض بيمنك فافتتح أقفالها

وقد يكون اقتراحاً لسياسة واستطلاعاً لرأى ، كقول مسكين الدارمى ، وقد أوعز إليه معاوية أن يقترح البيعة من بعده لابنه يزيد ليعلم رأى قومه فى ذلك :

إليك أمير المؤمنين رحلتها تثير القطا ليلاً وهن هجود
ألا ليت شعرى ما يقول ابن عامر ومروان أم ماذا يقول سعيد
بنى خلفاء الله مهلاً فانما يسوسها الرحمن حيث يريد
إذا المنبر الغربى خلاه ربُّه فان أمير المؤمنين يزيد

فلما أتم إنشاده قال له معاوية : تنظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله

ومثل ذلك حدث من عبد الملك ، فقد أراد أن ينقل ولاية العهد من أخيه عبد العزيز إلى ابنه الوليد ، فأمر النابغة الشيبانى أن يقترح ذلك فى حضرة الناس فقال :

لابنك أولى بملك والده ونجم من قد عصاك مُطّرح
داودُ عدْل فاحكم بسيرته ثم ابن حَرْب فانهم نصحوا
وهم خيار فاعمل بسنتهمْ واحىَ بخير واكدح كما كدحوا

فابتسم عبد الملك ولم يتكلم ، فعلم الناس أن ذلك أمره

ثم يكون أحياناً جدلاً فى رأى أو بياناً لمذهب ؛ فمن الجدل السياسى ما وقع بين كعب بن جعيل والنجاشى فى المفاضلة بين على ومعاوية . فقد قال كعب :

أرى الشام تكره ملك العرا ... ق وأهلَ العراق لهم كارهينا
وكل لصاحبه مبغض ... يرى كل ما كان من ذاك دينا
وقالوا علىٌّ إمام لنا ... فقلنا رضينا ابن هند رضينا
وقالوا نرى أن تدينوا لهم ... فقلنا لهم لا نرى أن ندينا
وكلٌ يسر بما عنده ... يرى غث ما فى يديه سمينا
وما فى علىٍّ بمستعتب ... ينال سوى ضمه المحدثينا
وليس براض ولا ساخط ... ولا فى النهاة ولا الآمرينا
ولا هو ساء ولا هو سرّ ... ولا بد من بعد ذا أن يكونا

فلما بلغ ذلك الامام علياً أمر النجاشى أنْ يجيبه فقال :

دَعنّ معاوى ما لم يكونا ... لقد حقق الله ما تحذرونا
أتاكم علىٌّ بأهل العراق ... وأهل الحجاز فما تصنعونا ؟
يرون الطعان خلال العجاج ... وضرب الفوارس فى النقع دينا
هم هزموا الجمع جمع الزبير ... وطلحة والمعشر الناكثينا
فان يكره القوم ملك العراق ... فقِدْماً رضينا الذى تكرهونا
فقولوا لكعب أخى وائل ... ومن جعل الغث يوماً سمينا :
جعلتم علياً وأشياعه ... نظير ابن هند ألا تستحونا ؟

ومن البيان المذهبى قول كثير عزة يشرح عقيدة الشيعة فى الامامة :

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاةَ الحق أربعة سواء :
علىٌّ والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبطٌ سبط إيمان وبر ... وسبطٌ غيبته كربلاء
وسبط لايذوق الموت حتى ... يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زماناً ... برضوى عنده عسل وماء

وكقول ثابت قطنة ، وهو من شعراء الأمويين ، يفصل مذهب الأرجاء :

يا هند فاستمعى لى إن سيرتنا ... أن نعبد الله لم نشرك به أحدا
نرجى الأمور إذا كانت مشبهة ... ونصدق القول فيمن جار أو عندا
المسلمون على الاسلام كلهم ... والمشركون استبوا فى دينهم قددا
ولا أرى أنْ ذنباً بالغ أحداً ... فى الناس شركاً إذا ماوحدوا الصمدا

إلى أن قال :

كل الخوارج مخطى فى مقالته ... ولو تعبد فيما قال واجتهدا
أما علىٌّ وعثمان فانهما ... عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا
الله أعلم ما قد يحضران به ... وكل عبد سيلقى الله منفردا

هذه جملة المعاريض التى عُرضت بها المعانى السياسية ، ولعلك تلاحظ من هذه الأمثلة أنها فى الغالب مهلهلة النسج ، نابية القافية ، بادية التكلف ، تشبه من بعض الوجوه نظم المتون . وعلة ذلك أن اتصالها بالوجدان ضعيف ، وأن أكثرها إنما يصدر عن طبع مكره ، أو شعور ممالق ، أو قريحة كابية ؛ والفرق بين شعر الأخطل والفرزدق وجرير ، وبين شعر هؤلاء الذين ذكرنا كالفرق بين من يعبر عن شعوره وحسه ، ويدافع عن قبيله ونفسه ، وبين من يتصل لسانه بقلب غير قلبه ، ويدفعه طمعه إلى محالأة حزب غير حزبه

على أن من شعراء الأحزاب من قالوا الشعر عن عقائد دينية وعواطف نفسية ، ونوازع عصبية ، فكان لشعرهم جمال الاخلاص وروعة اليقين ، وقوة الحقيقة ، أولئك هم شعراء الشيعة والخوارج ، فحق علينا ونحن فى مقام البحث فى شعر العراق أن نديم النظر ساعة فى أشعارهم ، لنستشف من خلالها صور مذاهبهم وأفكارهم

( يتبع ) الزيات


## قسم البلديات
### قلم التنظيم

تقبل العطاءات لقسم البلديات بوزارة الداخلية حتى ظهر يوم ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٣٥ عن توريد ٢٧٠ لوحة لشوارع مدينة الفيوم مكتوبة بالعربية والأفرنجية

وتطلب الشروط والمواصفات من قسم البلديات مقابل ٥٠ مليما ، وتقدم العطاءات داخل مظاريف مختومة بالجمع الأحمر ومصحوبة بتأمين ابتدائى قدره ٢٪ من قيمتها وكل عطاء يرسل بطريق البريد ويصل متأخراً لا يلتفت إليه